الدكتور اسماعيل صبري عبد اللّه:

مفهوم النهضة هو استرداد المجتمع لقدرته على التجدد الذاتي

حاورته: فهمية شرف الدين

استاذة في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية.

في أغلب الأحيان، إذا أردت أن تتعرف إلى شخصية إنسان، قد تكتفي بقراءة أسطرٍ عدة عن مراحل حياته، أو أن تستمع إلى رواية من عرفه. أما إذا أردت أن تطلع على فكره، فإنك تصل إلى غايتك بمجرد قراءة بحث من إعداده، أو كتاب من تأليفه. وفي كل الحالات، فإن غايتك سهلة المنال. لكن ما العمل وأنت أمام شخصية كالدكتور اسماعيل صبري عبد الله الذاتية والفكرية والسياسية؟

في حياته الفكرية، حلق اسماعيل صبري عبد الله عالياً في عالم الاقتصاد، أي عالم المعاش بين البشر. إذ لا يمكن تعداد أصحاب الأثر في دنيا الاقتصاد السياسي العربي، إلا وكان اسمه من بين الأسماء القليلة. تمسك بالتراث، وغاص في جذوره وحمل في ذات الوقت لواء التجديد، والتفكير إلى الأمام واستشراف الآتي من الأحوال.

شغل عدة مناصب ومسؤوليات رسمية ووزارية وحزبية، لكنه لم يتأثر بها بل تأثرت به. وأوسمته العديدة التي يحملها على صدره هي كتبه وأبحاثه وآثاره الفكرية.

دأبه، المستقبل، بل الأمل بمستقبل عربي مختلف.

يقول: «المهم أن نفكر في المستقبل ونناقش فيه، جوهر مفهوم النهضة هو استرداد المجتمع لقدرته على التجدد الذاتي، إذ ان من يتجمد في مكانه يموت وينتهي».

اسماعيل عبد الله، متفائل بالحركات المناهضة للعولمة أو «الكوكبة» حسب تعريفه، يقول: «لا أريد من أحد أن يحيطهم بالقيود، ما زلنا في البداية والتعدد الموجود لا بد أن يفرز أشكاله الجديدة في التنظيم». المهم بالنسبة له ليس الحديث عن الديمقراطية، بل «تعميم ونشر ثقافة الديمقراطية في مواجهة الاستبداد». في النهاية، حسب رأيه، «الإنسان مفطورٌ على الحرية، وبالتالي على رفض الاستعباد».

وفي ما يلي ثبتٌ بوقائع الحوار:

■ **سأبدأ الحوار باللحظة التاريخية التي تفرض نفسها اليوم ونحن نعيش مرحلة حرب الاستقلال الفلسطيني. هل ما زلت ترى أن التنمية العربية المستقلة مشروطة بتحرير فلسطين، وهل تعتقد أن التنمية ستبدأ فعلياً بعد تحرير فلسطين؟**

اسماعيل صبري عبد الله: أقول العكس تماماً، نقاط القوة في إسرائيل، هي نقاط الضعف الموجودة عندنا. بقدر ما أثق بمستوى السلاح، لا أخاف من القنبلة النووية لأنه لو أن إسرائيل رمتها على مصر فإن تل أبيب ستصاب بالتسمم لكن إسرائيل مستفيدة من تصرفنا، من ضعف أدائنا، من خلافاتنا الداخلية، كل هذا يجعل مجموع العرب الذين وصل عددهم على ما أظن إلى ٣٠٠ مليون عربي أضعف من الـ ٤ ملايين يهودي في إسرائيل. وأنا أعتبر أن الذي يحسم كل شيء هو التنمية التكاملية أو التكامل الإنمائي، أي أن نعمل على مشاريع جديدة، ونعمل مع بعض وليس عن طريق الاتفاق مع الحكومات. لدي اقتراحات عملية، على سبيل المثال أن تقوم الجامعة العربية بإنجاز قانون موحد للشركات المساهمة.

■ **سؤالي، في إحدى دراساتك تقول ان إطلاق التنمية في البلاد العربية، يكون بتحرير دولة فلسطين بصرف النظر عن حدود هذه الدولة. هل ما زلت تعتبر أن التنمية مشروطة بهذا التحرير؟**

عبد الله: لا، أنا أقول لن نستطيع أن نحرر ونقيم دولة قوية وفي نفس الوقت نستبعد مصر من العملية، أنا كتبت أن خلاف إسرائيل مع جيرانها العرب كله على الحدود، لكن مع مصر هو خلاف على الوجود. هذه المنطقة إما أن تقوم بتنمية تكاملية ويكون لمصر فيها دور الريادة، وإما الهيمنة الاقتصادية الصهيونية على المشرق العربي.

■ **يعني أنت تقول العكس، يجب أن تنمى المنطقة العربية وبالتالي هذا سيسمح لنا بتحرير فلسطين. في هذه الحالة كيف تنظر إلى مستقبل حرب الاستقلال؟**

عبد الله: ما يطالب به الفلسطينيون اليوم هو الحد الأدنى، ومن واجبنا أن نساعدهم ولا نسمح لأحد بفرض وصايته عليهم، وإذا كانت لنا آراء فلنقلها لهم شفوياً. الفلسطينيون عليهم خوض النضال للاستقلال، ويجب علينا أن ندعم هذا النضال بكافة الوسائل، وأهم وسيلة يمكن أن نستخدمها هي وحدة الموقف العربي. عبد الناصر على الرغم من خلافاته مع بعض الحكام كان ما يقوله له صدى في الأمة العربية كلها. وكان يعطي شعوراً بالقوة، وشعوراً بالأمل. العرب في السنوات الثلاثين الماضية أصيبوا بنكسة كبيرة جداً تمثلت في أمرين: رحلة السادات إلى القدس. ذهب إلى القدس، وليس إلى تل أبيب. يعني اعترف بالقدس عاصمة لهم وابتدأ يفاوض من الحد الأدنى.. بيغن بدأ من الحد الأقصى. بيغن قال كلمة بوجود السادات والأخير لم يرد عليها، وهذه كانت في رحلة السادات السوداء، قال: «لو اجتمع المال العربي والعقل اليهودي لتغيرت صورة المستقبل». نضال الفلسطينيين غير الرأي العام، والتأثير ممكن. في أوروبا كان اليهود مقدسين، اليوم وعلى أعلى مستويات السلطة وفي الشارع هناك تظاهرات. لقد قلت سابقاً نحن العرب شيء شنيع جداً أننا لا نرضى بحل وسط، إما الكراهية، من دون حدود وصولاً إلى نفي الآخر، أو المحبة التي لا تتم إلا بالمعاشرة. وقلت مرة ثانية بشكل أوقح «ان من يريد أن يكسب أمريكا لا بد من أن يمر بسرير إسرائيل». نحن نقوم ببعض الأشياء التي تساعد إسرائيل، ويجب إعادة النظر فيها. الوهم أن المشكلة ستحل سلمياً..

وأن مقولة أن إسرائيل لم يعد لديها مطامع كانت وهماً شنيعاً؛ وفي هذا السياق أريد أن أشير إلى مسألة مهمة حصلت في مصر، فقد أرسلنا نداء مكتوباً إلى السادات: «لا تذهب إلى القدس، فلن تحصل على أية نتيجة». ودعونا إلى مقاطعة وحصل تحالف واسع، لكن للأمانة نقول إن الشعب المصري هو الذي قاطع إسرائيل وليس الحكم. أحد الوزراء من الذين خرجوا من الوزارة قال لي: «الحمد لله بقيت ثلاثة عشر عاماً في الوزارة ولم أضع يدي في يد إسرائيلي». كلمة التطبيع انتهت، ومبارك قال: اقنعوا الشعب المصري فهو لا يريد أن يتاجر معكم ولا أن يتصل بكم. الأمر الثاني هو أن إحدى النكسات الشديدة كانت حرب الخليج الثانية. كلنا تخيلنا أن يأتينا العدوان من الخارج، ووجود هيئة الأركان التابعة للجامعة كان متوجهاً نحو عدوان خارجي، لكن لم يتصور أحد أن العرب سيحارب بعضهم بعضهم الآخر. هذه كانت طعنة كبيرة جداً، لا تقل عن زيارة القدس. وأنا أثناء حرب الخليج كتبت ورقة شبه بحثية، قلت فيها زلزلت الأرض العربية زلزالها. لا يوجد في ذهني، أي مبرر لعدوان دولة عربية على دولة عربية أخرى. هذا معناه أسوأ أشكال القطيعة، فمثلما ذهب السادات وحده ليفاوض.. وكانت خيبة.. ولم تعد تسوية بل أصبحت استسلاماً، فأي خلاف بين العرب ممكن أن يحل بالطرق السياسية. وفي المقابل، هناك عنصر إيجابي في السنوات الخمسين التي مرت، هو حركة العمالة العربية، والتعارف بين الشعوب، والمصاهرات التي نمت. هذا أقام تحركاً في هذا الاتجاه. تحرك وصل حتى إلى مستوى الرأسمالية. وهناك عدد من الشركات العربية ـ المصرية في مصر، وإحدى هذه الشركات لها نشاط في لبنان، أنا أتابع هذا، يعني نحن تعرضنا لضربتين قاضيتين، لكن الشعب العربي لم يمت.

■ لماذا لا يتحرك العالم الثالث؟ لقد كانت التحالفات السياسية دائماً محك اختبار للعلاقات بين مناطق العالم الثالث، وبخاصة في مسألة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، كانت هناك محطة لاختبار التحالفات السياسية في الستينيات والسبعينيات، وهذه التحالفات كانت تظهر في كل مرة أن الشعب العربي كان بحاجة لها، لماذا لا تعود هذه التحالفات..؟

عبد الله: أريد أن أذكرك؛ أنه كانت هناك مجموعتان: هناك مجموعة عدم الانحياز، وهذه كانت الحزب السياسي للعالم الثالث، ولم تكن كل الدول العربية فيها. والمجموعة الثانية، ما يسمى بمجموعة الـ ٧٧، وهي بقية العالم الثالث. عندما أنظر إلى العالم الثالث، أجده يتفاوت في التخلف، ولا يتفاوت في التنمية لأن التنمية ليست في الصناعة فقط. هناك أوضاع اجتماعية لا تتطور.

■ لكن اليوم، يقال عن الهند أنها ستغادر، إذا صح التعبير، تنمية التخلف. البرازيل أيضاً؟

عبد الله: الهند هي الاستثناء الوحيد. البرازيل ما زالت فاسدة ومتأخرة، عندما احتُسبت من بين الدول الخمس المتوقعة بدأوا من عدد السكان، أو حجم السوق، بعبارة أخرى، كل هذه الدول فيها أكثر من ١٠٠ مليون. و١٥٠، و٢٠٠ مثل اندونيسيا. وفي الهند يقتربون من المليار. وبعد ذلك إلى جانبهم القاعدة العلمية، والتقدم التكنولوجي بالمعنى الشامل، وهذا بالذات ما يسمى بالتنمية البشرية. هذا مقياس، وعندما ننظر إلى

نوع الأرقام عندهم، نجد أن بعض هذه الدول وصل مستوى دخل الفرد فيها إلى ٩٠٠٠ دولار، في مصر ١٤٠٠ دولار، في الهند ١٠٠٠ دولار فقط، يعني الهند بلد كبير جداً، وأناس كثر، ومع كل ما فعلوه لم يستطيعوا أن يقضوا على الفقر. الدولة الوحيدة التي كانت التوقعات الغربية ترى أنها تلحق بركب الكبار كانت الأرجنتين، وقد انهارت، هذا لكي نربط علاقة السياسة بالديمقراطية.

■ **أين تضع البلدان العربية؟**

عبد الله: البلدان العربية، منها دول فيها أعلى مستوى دخل في العالم الثالث كله، مثل الإمارات، لأن عددهم قليل. أما متوسط الدخل لمجموعة الدول العربية فإنك ستجدينه لا يزيد على ١٢٠٠ دولار في الشهر.

■ **ولكن لا تقاس التنمية بمعدل دخل الفرد؟**

عبد الله: لكن لا يُلغى، خذي مثلاً نسبة الأمية.

■ **هل هذا من أسباب عدم قيام تحالفات سياسية بين دول العالم الثالث؟**

عبد الله: لا، السبب هو فساد الحكومات بشكل قاطع، والعلاج هو الديمقراطية. لن يحدث، لا تكامل عربي، ولا تنمية قوية ولا أي شيء من دون الإطار الديمقراطي. لقد ذكرتِ الهند، أهم ما يميز الهند منذ أن نشأت، انها دولة ديمقراطية، وناجحة وقادرة على أن تتغلب على الخلافات الداخلية. الكل هناك يفتخر بأنه هندي. ولا يقولون ان هذا مسلم وذاك هندوسي. الديمقراطية ضرورية لعدة أسباب أهمها متصل بالتنمية. الديمقراطية بمثابة ضمان كحرية البحث العلمي. وبالتالي فإن الديمقراطية تسمح للطاقة التجديدية داخل المجتمع أن تجد نفسها. من غير أن يأتي أحد ويتكلم عن التحديث.

■ **هل هذا يعني، انك من الذين يعتبرون ان الديمقراطية، هي الآلة السحرية للتنمية؟ لأن أكثرية المثقفين العرب يعتبرون أن الديمقراطية ستساعد على إطلاق المبادرات الفردية، أكانت في المستوى العلمي، أو في المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الإنمائي، وانه يكفي أن تكون هناك ديمقراطية حتى تكون هناك تنمية. هل أنت من هذا الرأي؟**

عبد الله: لا! الديمقراطية من الشروط الضرروية لكنها ليست كافية. بعد هذا يأتي دور محتوى هذه الديمقراطية؛ ممارسة ثقافة الديمقراطية على مستوى المجتمع.. في مصر مثلاً هناك ثلاث جمعيات مختلفة لسيدات الأعمال، وحاول وزير التجارة الداخلية أن يقنعهن بأن يجمعن هذه الجمعيات، في منظمة واحدة. لم يتجاوبن وكل جمعية لها سيدة ترأسها ويقولون المنظمة الفلانية. في القطاع المدني السلطة بالوراثة والرئيس يبقى إلى الأبد وكل الأشياء المشوهة على مستوى السلطة السياسية هي أيضاً مشوهة على مستوى المجتمع. الديمقراطية الحقيقية، تبدأ في الأسرة والمدرسة. هل سنعودهم الطاعة والتلقين والحفظ؟ أم سنزرع فيهم نمو الشخصية؟

■ **أنت تدخل في الأبعاد الاجتماعية لمسألة الديمقراطية التي هي فعلاً العناصر الأساسية في التنمية الديمقراطية.**

عبد الله: أنا من الناس الذين يرون، وهذا رأي تبناه «حزب التجمع» عندنا في

برنامجه الجديد، ان الديمقراطية بشكلها الغربي ليست كافية. ويجب أن تطعّم بديمقراطية المشاركة ولها اختصاصات منها تفكيك المركزية. وهذه الحكاية كانت واردة في الميثاق الوطني لعبد الناصر عندما قال: الديمقراطية تعني شيئين: ١ ـ نقل السلطات من المركز إلى المناطق ٢ ـ يجب أن يكون في كل مستوى من هذه السلطات مجلس شعبي سلطاته أكثر من سلطات المحافظ.. ومن يستجوب المحافظ؟ قانون المجالس الشعبية هذا لم يصدر أبداً. لكن عبد الناصر كان متنبهاً إلى هذه النقطة.

■ **لقد كانت هناك ديمقراطية «بالمشاركة» حاولت يوغوسلافيا أن تمارسها في الإدارات الجماعية للمصانع ولغيرها؟**

عبد الله: لا يوجد حل سحري واحد ينطبق على جميع البلدان. أنا أحدثك عن الديمقراطية، وأنتقد نفسي في هذا لأننا «نحن» وأنا تحديداً واحد من الناس الذين ضحوا قليلاً بقضية الديمقراطية في سبيل التقدم الاجتماعي والاستقلال والتحرير الوطني والتناقض الأساسي مع العدو، وأشياء من هذه نندم عليها. أنا أندم على هذا وأنا أنتقد نفسي نقداً ذاتياً، ومن هنا يأتي الإصرار على الكتابة في موضوع الديمقراطية ودراستها.

■ **صادق جلال العظم قال في إحدى مقابلاته الصحفية في جريدة «النهار» منذ مدة، انه نادم لأنه لم يعر مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان الأهمية التي تستحق. طبعاً أنت من أوائل من كتب في الديمقراطية في أواخر هذا القرن، وقد قرأت لك مقالة كتبت في أواخر السبعينيات، بهذا الخصوص، ما الذي جعلك تهتم بموضوع الديمقراطية على المستوى النظري. لقد أصّلت المفهوم وحاولت أن تعتني بالتعريف، وأن تعتني بالسياق المعرفي الذي خرجت منه. هل يمكن تطبيق الديمقراطية في البلدان العربية؟**

عبد الله: الدولة نتكلم عنها ككائن مضاد، تجسيدها الفعلي هو البيروقراطية المركزية. لقد كنت مشغولاً بقضية كيف نميز بين مفهوم الدولة، ولكن في التنفيذ، في البيروقراطية، لقد أدخل عبد الناصر مبدأ، وأنا كنت أؤيده تماماً وما زلت أتمسك به، وهو اشتراك العمال في مجالس إدارة الشركات. لكن ذلك، لم يؤد إلى أية نتيجة مجدية، لأن المناخ كله كان غير ديمقراطي، وأعضاء مجلس الإدارة اعتبروا أنفسهم يمثلون النقابة، فيما الدور الفعلي للنقابة يقوم على الاعتراض.

■ **إنما هذه التجربة هي تجربة سوفياتية؟**

عبد الله: كنت ناقداً لتجربة الاتحاد السوفياتي. ولي كتاب صادر عام ١٩٦٨ أو قبل ذلك اسمه **القطاع العام: المفاهيم النظرية والتطبيقات العملية**. وانتقدت فيه نظام الاتحاد السوفياتي، وقلت انهم قد عمموا قضايا كثيرة، يعني مثلاً كانوا يتمسكون بكلمة قالها لينين «يكفي مدير واحد للشركة وتمشي كلها». قالها في ظروف محددة. كانت هناك ندرة في كل شيء بما في ذلك ما يختص بكفاءات الإدارة. لقد انتقدت هذا وانتقدت الوسيلة التي يتم فيها التخطيط لأنهم استمروا بوسائل طُبقت في أول خطة للتنمية والتي اعتمدت سنة ١٩٢٨ وكانت في ظروف الضيق والشدة.

■ **هل نستطيع أن أقول إن اهتمامك بالديمقراطية ناتج من مراجعتك لتجربتك السياسية داخل الحزب وداخل النظام السياسي الذي هو «الناصرية»؟**

عبد الله: أنا قلت إن الديمقراطية ضرورية لكنها غير كافية. إن الجهاز كله فاسد، والانتخابات تزوّر، يعني لا يوجد ديمقراطية حقيقية.

■ إذا أخذنا الهند هل نستطيع القول إن الديمقراطية الهندية هي أحد الأسباب التي جعلت من الهند دولة متقدمة؟

عبد الله: أولاً احتفظت بتكوينها.. لم تنقسم، لا يوجد أحد طالب بالاستقلال من الولايات المكونة، وهذه مسألة عظيمة. الهند فيها متحف أديان وفيها إثنيات.. وفيها ١١٤ لغة مكتوبة. كيف يتفاهم هؤلاء مع بعضهم البعض، وما هي الآليات التي تحل بها الخلافات؟! لو نظرنا إلى العرب بشكل من أشكال التكامل، فنحن الـ ٣٠٠ مليون، عدد كبير أكبر من حجم أمريكا، ونقترب من حجم الاتحاد الأوروبي، فالاتحاد الأوروبي ٣٢٠ مليوناً. هنا الكثرة لها مردود اقتصادي إذا أديرت بطريقة ديمقراطية، وإذا شعر كل إنسان أن لديه الفرصة للدفاع عن نفسه.. وعنده انتخابات وانتخابات جادة جداً.. وقوانين. كل هذه الأشياء حتى الفقير في المجتمع المنظم له دوره أيضاً. ثم هناك البعد الحضاري، الهندوس دائماً يكرهون التباهي بالثروة والغنى.. أسلوب حياة الدولة نفسها بسيط جداً.. كنت مدعواً مرة إلى الهند.. وكنا في لجنة الجنوب، وكان الداعي رئيس الهند.. وجلسنا في المبنى المشهور «Rose Garden»، منزل ضخم. وعندما جلسنا إلى المائدة.. كان الطعام بسيطاً وأدنى مستوى من الأكل الذي كنت أتناوله في الفندق، ورئيس الدولة يرتدي الثياب الفولكلورية، وعرفنا أنه كان في الأصل من طبقة الأنطاشوليس، أي المنبوذين، هذا هو رأس الهند الآن.

■ هذا يعني البعد الثقافي لمسألة الديمقراطية؟

عبد الله: بالضبط، وقد لاحظت أيضاً في اليابان، وأنت تعلمين أنه في اليابان، هناك أسوأ توزيع للدخل ما بين الدول العظمى، لكنك لا تشاهدين فقيراً يتسول في الشارع. ولا آخر يركب سيارة طولها سبعة أمتار. لا يحبون الـ Show.. الاستعراض، فالفقير ليس خاضعاً لاستفزاز دائم كالذي يحس به الفقير عندنا في مصر مثلاً، كالأعراس التي يصرف عليها مليون جنيه في ليلة واحدة.. الجانب الاستعراضي، الاستهلاك الترفي، مع فقر مدقع شيء فظيع. إن الهند لم تقل أبداً انها حلت مشكلة الفقر. يقولون نحن دولة فقيرة. ولكننا ننتج.

■ كأني بك تقول ان الديمقراطية هي التي نمّت الهند؟

عبد الله: من غير ذلك كانت ستتفتت.

■ أنت تعرف وأنت أحد رجال السياسة الذين شاركوا في الحكم في مصر، أن مصر مبنية أولاً على نموذج الدولة المركزية تاريخياً حتى في الفترة الناصرية وقد تعرضت للفشل لأنها تسمح للناس بأن يشاركوا في صنع القرار. لكن اللامركزية قد تكون كما تعلم سبيلاً للتفرقة. ونحن لدينا في البلدان العربية مجموعة من الدول يحارب الناس فيها الآن لأجل الاستقلال. لدينا الصحراء الغربية.. وجنوب السودان.. كانت هناك اريتريا ويمكن أن يصبح شمال العراق. تعلم الأمور ليست بهذه البساطة في دول لا تملك القدرة الكافية على السيطرة؟

عبد الله: سأعطي الأمثلة من مصر لأنني أعرف فيها وقائع أكثر من غيرها. الدولة المركزية في مصر كانت ضرورة لتوزيع مياه النيل توزيعاً عادلاً، وبالتالي نظرة المواطن إلى فرعون ليس أنه يأخذ فقط ضريبة، لا بل هو يجلب له المياه.. وبالتالي ليس هناك هذا التناقض الأعمى الكامل. فالسبب تاريخي، في مصر قامت ثورة اسمها الثورة العرابية. وكانت حركة عرابي حركة شعبية حقيقية، والناس تبرعت لها.. كل قرية أرسلت حصاناً وعساكر ومتطوعين.. فتطور الديمقراطية متوافر. وليس هناك من إنسان ولد عبداً ويعيش عبداً طوال حياته..

■ **كيف تفسر تأخر مسارات الديمقراطية في الوطن العربي؟**

عبد الله: في مقدمة الأسباب مسؤولية المثقفين؛ الجيل الذي سبقنا والذي كان يؤمن بالليبرالية وجاهد من أجلها وكتب وألّف وتعلمنا على أيديهم: طه حسين وأحمد أمين ولطفي السيد ومحمد مندور.. هؤلاء قاموا برسالتهم، نحن لم نقم برسالتنا. كان لدى المصريين حزب شعبي كبير ما بين عامي ١٩٢٣ و١٩٥٢. الحزب الشعبي الكبير الذي كان عند المصريين لهذا العصر هو مثل حزب المؤتمر الهندي. وحزب الوفد وحزب المؤتمر كانا على صلة منذ ثورة ١٩١٩، ونهرو تردد على مصر كثيراً وقبل أن يصبح رئيساً. الوفد عندنا في الفترة الأخيرة ضيق على الجناح اليساري، وبالتالي كان من الطبيعي للحركة الشيوعية أن تنشأ من خارجه، وكان هذا من أصعب الظروف، لكن عندما تأتين من حزب كبير ولديك أفكار أكثر تقدماً، يكون عندك التدريب على العمل الحزبي.. وكيف يكون الاتصال بالناس، ولن تعملي كالواعظ الديني يخبرهم بعض الأشياء كحقائق مطلقة وإذا لم يفهموا.. كان هناك نوع من التعالي على الجماهير. ولكن هذه ظروف تاريخية نشأنا فيها، العرب كلهم لديهم مشكلة وهي غياب الثقافة الديمقراطية. وليس النظم الديمقراطية فحسب بل الثقافة الديمقراطية.

■ **أريد فقط أن أكمل قراءتي لهذه الوقائع، حتى نستطيع أن نخرج باستنتاجات على مستوى قولنا حول الديمقراطية. هذا النقد، الذي بدأ باكراً وكنت من أوائل الذين باشروه، نرى الآن بعد ثلاثين سنة أن النقد لا يعطى الأهمية الكافية، النقد بما هو نقد للنماذج، للأفكار السائدة، بما فيها الأفكار التي تصلنا عبر وسائل الإعلام. ما الذي جعل هذا النقد لا يؤتي ثماره في بلاد بحاجة فعلياً إلى إعادة النظر في تاريخها السياسي والاجتماعي؟**

عبد الله: في فترة الستينيات.. فترة الهزيمة، كان هناك ازدهار ثقافي رائع في مصر، ومتقدم، ومازج بين القديم والجديد. كان لدينا مسرح تجريبي وقد شاهدت على خشبته مسرحية الكاتب العبثي واسمها «الخرتيت»، كنت سعيداً جداً أن كان لدينا نشاط مسرحي ضخم. كانت الدولة تعطي منحة تفرغ للفنانين حتى يعمل الجميع. وطرح عبد الناصر نفسه من خلال مقالة لهيكل عن أزمة المثقفين مع النظام، هل هناك ثقة أم لا؟ هل هناك نقد أم لا؟ وكانت مناقشة علنية، وخرجت آراء لأشخاص كثر، ودعونا الكتاب الذين ليسوا محسوبين على اليسار أن يكتبوا في صحفنا... إلخ. عملنا محاولة، كنا ننتقد آراء بعضنا البعض. كنا سعداء أن نظهر أنه لدينا تعددية في الآراء ونمارسها بالفعل.

■ **والنتيجة إلى أين وصلنا بعد ذلك؟**

عبد الله: العامل الأساسي المدمِّر في بلدان العالم الثالث هو الفساد. المثقف المصري اليوم يهتم أولاً بزيادة دخله، ولا يكتب إلا إذا أخذ مقابلاً لذلك، على مستوى الجامعة، أي بحث غير ممول لا أحد يشترك فيه. نحن كنا نفرح إذا نشرت أبحاثنا في مجلة علمية. كنا نعتبر أن حقنا قد وصلنا.

■ ولكن هذا جزء من الثقافة العالمية السائدة، ثقافة رأس المال، الثقافة المعادلة للربح؟

عبد الله: رأس المال فعّال طبعاً وإلا لما كانوا فعلوا ما يفعلونه. هناك مادة تدرس في الجامعات واسمها «آداب الأعمال». يوجد أخلاقيات للأعمال وإلى عهد قريب كان الرجل الذي يحتال ويسرق محتقراً في وسط «مجتمع الأعمال». كأن يقولون هذا غير جاد.. هذا لا يحافظ على كلمته.. إلخ. قلت إنه في البلدان الفقيرة، الفضيلة ليست قيمة دينية، وأخلاقية فقط، لكنها قيمة اقتصادية أيضاً؛ ظروف الفقر، وهنا يتضح ما يمكن أن نسميه ايديولوجيا وهذا يظهر في كوبا. على الرغم من الحصار الذي يطوقها، اختفت منها الأمية تماماً. وهي متقدمة في البحث العلمي، والتكنولوجيا الحيوية، هم الذين صنعوا العلاج الخاص بالسرطان. هذا ما يحصل في بلد صغير، حجم سكانه حوالى ١٠ ملايين. وهذا ما يجعل كاسترو شخصية شعبية في وسطهم. لأنه قد أتى بشيء جديد، وأشياء بسيطة جداً وجميلة جداً. هم لديهم عادة ويحبون الاهتمام بأعياد الميلاد ولكن هذا يحتاج إلى مصاريف.. وموسيقى.. إلخ. ففي وسط هذا الحفل الكبير يوجد أكشاك للأفراح، لأن المنازل لا تسمح بجمع العائلة كلها. فالفكر، والمثل العليا، ليست من الخيال، ولكنها ضرورية لحياة الإنسان.. الإنسان الذي لا يملك نسقاً قيمياً في ذهنه هو إنسان سيئ جداً ويجب ازدراؤه.

■ الديمقراطية، موضوع يشغل بال المثقفين هذه الأيام ولهم الحق في ذلك. إذا قارنا، بين البلدان العربية، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية نجد أنفسنا في آخر السلم في السير على طريق الديمقراطية. أعتقد أن الإشكالية في علاقتنا بالديمقراطية ناتجة من هذا السياق الاجتماعي الذي مع الأسف ابتدأ مسيرته (الماضوية)، وبعض التيارات الماضوية ابتدأت مسيرتها في الوقت نفسه الذي بدأ فيه نقد النماذج التوتاليتارية والدعوة إلى الديمقراطية. هل المشكلة تعود إلى أن سقوط النماذج التوتاليتارية ترافق مع صعود نماذج الحركات الإسلامية الماضوية والتي بدل أن تطالب بتجاوز الحزب الواحد نحو التعدد، عادت وطالبت بنمط آخر مناقض له تماماً ولكن من نفس النوع؟

عبد الله: فلنترك الماضي قليلاً، ولننظر إلى المستقبل، وماذا يمكن أن نصنع لأجل نشر الثقافة الديمقراطية بين الناس، ونجد دوراً انتقالياً من الأوضاع الحالية إلى أوضاع أفضل. الماضوية موجودة في كل الاتجاهات، هناك ماركسيون ماضويون.. فالماضوية في العقل العربي مأساة. إذا اقتنعنا بأن الديمقراطية من الشروط الضرورية ولكنها غير كافية، يبقى السؤال ماذا يجب أن نفعل لنشر هذه الثقافة؟ وأهم وسيلة للنشر هي الممارسة الفعلية.

■ دعنا نضيء المناطق والمفاهيم التي اعتنيت بها أكثر من غيرها. وسأعود معك إلى

مفهوم التنمية الذي شغلك كثيراً، وكانت لك إسهامات واسعة في هذا الموضوع على مدى سنين عملك وحياتك. والذي يراجع كتاباتك، يجد أن تجربتك الشخصية في التخطيط الاقتصادي، قد ساعدت في رأيي في توسيع مفهوم التنمية لتحوله من مفهوم اقتصادي إلى مفهوم حضاري. فأنت صاحب القول بأن التنمية ليست ظاهرة اقتصادية بحتة، وأن للبشر دوراً فاعلاً فيها. كما أنك رفضت أن يكون للتنمية نموذج واحد، على الرغم من إيمانك بالاشتراكية كدليل للتنمية المستقلة. الآن، ومنذ بداية التسعينيات، أعاد الفكر التنموي الاعتبار إلى العنصر البشري. لكن هذا الفكر، كما تعلم، يقيم التنمية على فكرة الاعتماد المتبادل، وليس على التنمية المستقلة. هل لا تزال تصر على فكرة التنمية المستقلة، وهل هي ممكنة في ظل الظروف المعاصرة؟

عبد الله: يجب أولاً، أن نفهم المفهوم السليم للتنمية وللتخلف. التخلف، ليس تأخراً زمنياً. لم تقف الشعوب عند خط بداية السباق، بعضهم وصل إلى نهايته، والبعض وقع في الأرض، والباقون تساقطوا. التخلف عن الاستعمار هو تنمية مشوهة، ولدينا في مصر نموذج قيم جداً. الإنكليز، لما جاؤوا إلى مصر، قالوا إنها لا تصلح للاستعمار والاستيطان. الناس كثر والأرض قليلة، فبماذا يمكن أن نستفيد؟ فوجدوا القطن المصري وهو من أفضل الصناعات، فتحول ذهنهم إلى مزارع القطن. وساعدوا على توسيع الملكيات.. باعوا أملاك الخديوي إسماعيل، وكان اسمها «الدائرة السنية»، باعوها بالتقسيط وبفائدة ضعيفة جداً. كانوا يخافون من أغنياء الأتراك والشراكسة لأن قلبهم كان في اسطنبول، اهتموا بأغنياء الريف، هؤلاء الذين يسكنون في الأساس في القرية. أهل القرية يعرفونهم اسماً باسم. نجحت تجربة زراعة القطن، وكل ما يتصل بها تم تحسينه. السكة الحديد نشأت مبكراً عندنا وذلك لنقل القطن إلى الإسكندرية. الشيء الوحيد الخاص بالبحث العلمي الذي كان في وقت الإنكليز هو معهد القطن. كل البنوك دخلت في عملية تمويل القطن، تمويل الزراعة.. وتمويل التجارة الداخلية... إلخ التعليم ابتدأ بالزراعة. وكانت النتيجة أن بقية امكانيات الاقتصاد المصري أهملت. فعندنا قطاعات تخلفت، كالتعليم. الدولة لم تكن تستطيع أن تصرف عليه كله، الجمعيات هي التي أصبحت تساعد في ذلك. وسأعود إلى مفهوم كان قد اشترك في مناقشته سمير أمين وهو «التبادل غير المتكافئ»، يشترون منا منتجات بسعر أساسي لأن أجور العمال متدنية، وهذا ما يدفعهم إلى المجيء إلى هنا والاستثمار. حتى لو استطعنا البيع، نبيع الأشياء بأسعار قليلة لأن الطرف الآخر هو الأقوى. أي علاقة اقتصادية بين بلد فقير وضعيف واقتصاد كبير يكون لصالح الكبير. كتبت مقالة نشرت في **المستقبل العربي** وعنوانها: «مفهوم التكامل المتكافئ والتكامل غير المتكافئ». وأعطيت مثالاً الحالة الخاصة بمصر. كنا قد تحدثنا مع مانشستر، كل صناعات القطن هناك كانت تعيش على القطن المصري، والقطن الأمريكي، لأنه لا يوجد قطن في أوروبا. أي التكامل، ينجح بين الناس المتكافئين من حيث التقدم، والتنمية، والنمو الاقتصادي.

■ **لكن اليوم يوجد مفهوم آخر وهو الاعتماد المتبادل وهذا لا يشترط التكافؤ.**

عبد الله: لا يوجد اعتماد متبادل بين القوي، والضعيف، هناك علاقة استغلال. أي نحن نتعامل مع أشخاص، يعظمون الربح، وكل الوسائل متاحة لديهم لكي يفعلوا هذا، ونحن موقعنا في المساومة ضعيف. أنا أذهب إلى أكثر من هذا وأقول أن لا نترك

الاستيراد كيفما كان وأن نهتم بصادراتنا ونقوم بصناعات من الممكن أن تصدر، وأن نستورد بحدود ما نصدره، أي أن نقوم بعملية متوازنة. في مصر اليوم قيمة الصادرات تساوي ٣٠ بالمئة من قيمة الواردات، هذه تبعية. والتنمية المستقلة تستند إلى الديمقراطية وتستند إلى اختيارات سياسية محددة تنظر إلى الإنسان كأداة للتنمية، ولذلك يجب أن يكون بصحة جيدة. ولكي تزيد كفاءاته يجب تعليمه، لأن الفقير الجاهل عبء على التنمية. عندما أتكلم في هذا الموضوع فأنا أنطلق من المفاهيم الاقتصادية وليس من المفاهيم الاجتماعية، لا أن أقول إن حساباً اقتصادياً دقيقاً ضماناً للنجاح هو في مفهوم التنمية المستقلة، وهذا لا يتعارض، ولا نقول مع الاعتماد المتبادل ولكن نقول الاعتماد الاجتماعي على النفس. يعني لو تجمّع العرب في تكامل سيكون هناك اعتماد متبادل، بينهم. في هذا الوسط تكون التنمية المستقلة على المستوى الاقليمي. كل الناس المهتمين بالعالم الثالث، حتى في أوروبا يذهبون إلى ضرورة التكامل الاقليمي (Regional). لو تكاملت ثلاث دول عربية تكون خطوة كبيرة إلى الأمام.

■ لكن قبل نهاية الثنائية القطبية هذه التنمية المستقلة المتمحورة على الذات لم تستطع، وهي جوهر العملية الاشتراكية بالنهاية، أن تقيم أساسها الموضوعي في البلاد العربية، في الفترة السابقة. وقد كان يُنظر إليها كبديل لأنها مرتبطة أيضاً بالاشتراكية كحل ولم تستطع أن تقيم أساسها الموضوعي، بدليل ما حدث في التسعينيات وفي نهاية القرن الماضي. هل ترى لهذه التنمية إمكانية تحقق الآن في ظل الدعوة العارمة لفتح الأسواق وتحرير التجارة والاعتماد المتبادل؟

عبد الله: إن المهتمين بالتجارة الدولية بجدية ينادون بالاقليمية (Regionalism)، وهناك مقابلها لكي يسند إلى الـ «Building Blocks» الخاص بالعولمة الموزونة التي من الممكن أن لا تكون ظالمة ظلماً طويلاً. وبالتالي، معنى التنمية المستقلة ليس أن أنتج كل شيء، أنا أتاجر بقوة العمل خاصتي وإنتاجية قوة العمل، الباقي كله مشترك، الفكرة وهذا تعبير استخدمته مؤخراً هو أن التنمية المستقلة هي توسيع لهامش حركة الإرادة الوطنية المعبر عنها ديمقراطياً في تشكيل المجتمع»، لم أقل قطيعة، لأن هناك الآن وسائل لا تستطيعين أن تعملي معها قطيعة مثل التلفزيون، والصحون اللاقطة. ما أريد أن أحافظ عليه هو جوهر التنمية المستقلة. هو أن المجال متروك للإرادة الوطنية المعبّر عنها ديمقراطياً وهو الذي يقول نعمل هذه الصناعة أو لا نعملها.

■ حتى في هذا المجال، هل الخيارات الاقتصادية كما الخيارات السياسية مرهونة بعلاقات القوة؟ وبالتالي فإن الكلام حول ماذا نفعل في الداخل يرتبط بالقدرة على مواجهة تحرير التجارة من الخارج والذي يلزمنا بفتح الحدود بالقوة. منظمة التجارة العالمية اليوم هي جزء من أدوات تحرير التجارة. فكيف يمكن لدول لا تمتلك القوة الكافية أن تقول لا؟ غير أن نبحث عن الاستثمارات الأجنبية ونحضر كل ما يلزم لهذه الاستثمارات للدخول إلى بلادنا بما فيها القوانين التي تحميها والتي بواسطتها نستطيع إعادة تصدير أرباحها والعمالة وكل ما يجب حفاظاً على بقاء الاستثمارات في هذا البلد، أنا أعتقد أن لا قدرة للدول على إنجاز تنمية مستقلة؟

عبد الله: المشكلة هي كمية الجهل الذي يسود في مراكز صنع القرار في الوطن العربي.

■ **الجهل أو سوء النية؟**

عبد الله: لا الجهل. المفاوضات التي أدت إلى إنشاء منظمة التجارة العالمية كان اسمها الغات واستمرت سبع سنوات. لم أكن مهتماً بالقراءة الخارجية ولا كتبت فيها، لكن في لجنة الجنوب قالوا نريد أن نعمل «Fast Force» لمناقشة ومتابعة ما يحصل في دورة الأوروغواي وأنت يا اسماعيل مسؤول عن هذا. قلت لهم إنني لم أدرس موضوع الغات ولم أكتب عنها، فقالوا إنها فرصة لكي تتعلم. فدرست الموضوع عن كثب، ولم تكن هذه الأشياء مطروحة للنقاش في مصر. وعشية اجتماع مراكش والتصديق على الغات عام ١٩٩٤، المسؤولون الكبار في مصر سألوني ماذا نفعل في الغات؟ قلت لهم: هل من المعقول أن تسألوني في عمل مر عليه سبع سنوات؟ وكانت مصر حاضرة بوفدها وبقية الوزارات ومجلس الوزراء لا يعرفون ما الذي يحدث. الوثيقة وهي نسخة عن الوثيقة الأصلية كبيرة جداً، وبها تصليحات وإضافات، يعني قراءتها صعبة للذي ليس متابعاً من البداية. هذا الجهل جعلنا لا نتخذ الحيطة لتطبيق الغات مقدماً.

■ **أريد أن أميز بين هذه الإرادوية التي تنتمي إلى مجال النضال، وبالتالي أحيي نضالك الدائم. عندما أناقش معك فكرة التنمية المستقلة أحاول أن ابني استنتاجات عملية. ما هو الرابط الذي يربط تعريفاتك مع السياق المعرفي الخاص بها.. ومع السياق المعرفي الموجود في البلدان العربية؟ كنت أود أن أرى العناصر التي تتيح لك أن تطلق دعوة لتنمية مستقلة في البلدان العربية، وما لفت نظري في تعريفك للتنمية هو ربطك ما بين التنمية والنهضة وبخاصة في ظل عدم وجود أي تغيير في الوقت الذي يقول فيه سمير أمين إن العرب يدخلون القرن الحادي والعشرين بأضعف مما دخلوا القرن العشرين. معنى ذلك أن ٢٠٠ سنة من النهضة أبقت الوطن العربي على أبواب القرن الحادي والعشرين إذا لم نقل على أقل من أبواب القرن العشرين، أنا أحيي قدرتك المعرفية لكن تعريفك لمفهوم النهضة استوقفني فعلاً. فأنت تقول إن النهضة هي هبّة اجتماعية ـ ألا ترى معي أن فكرة الهبّة لا تنتمي إلى العقلانية التي استخدمتها وناديت بها، بل تنتمي إلى العواطف والرغبة، وهنا أضع أيضاً كلامك حول الحلم. يعني عقلانيتك في تحليلك السياسي وتحليلك للقدرات العربية وكلامك، يناقضها تماماً ما قلته بعد التسعينيات حول العلاقة بالنهضة. وأنا أرى فيها إرادوية شديدة تنم عن الرغبة والعواطف أكثر مما تنم عن العقلانية؟**

عبد الله: المسائل متقاطعة، التنمية تكون مرتكزة على الاقتصاد حتى لو اتخذت البعد الاجتماعي في الاعتبار. البعد الثقافي مهمل، من سبقنا والذين استشهد بهم سمير هم الذين استمروا إلى عشرينيات أو ثلاثينيات القرن العشرين. كان هناك فعلاً هبّة اجتماعية. الدليل الإقبال الشديد من الناس الفقيرة المتخلفة على الاستفادة من مجانية التعليم وأدخلوهم أفواجاً بها. وهل من أهمية لهذا؟ نعم ان الفرق بين التقدم والتخلف هو العلم. إذا كانت مصر اليوم تستطيع أن تجلب من المصريين الذين يعملون في الخليج ٣ مليارات دولار في السنة، فهؤلاء ثمرة التعليم العام المجاني الذي أقامه عبد الناصر. في الصعيد مثلاً تجدين الأخت التي تجاوزت العشرين عاماً لا تخرج من البيت للزيارة إلا ليلاً ومعها رجل، أختها الصغرى تركب الأوتوبيس الخاص بالمدرسة وهو مليء

بالصبيان. فعندما أقول «هبّة» وتغير، هذا ما أقصده. مثال على ذلك أسرتي، كانت من الأغنياء وكانوا يرسلون البنات إلى مدرسة راهبات فرنسية ليتعلموا الآداب والاتيكيت.. الخ، وعندما خرجت من المعتقل عام ١٩٦٤ وجدت كل بنات الأسرة إما في الجامعة وإما أنهن قد تخرجن ويعملن. هذه ثورة، الثورة التي حصلت في وضع المرأة في مصر والتي لا يتكلم أحد عنها أبداً، ومصر قد تكون البلد الوحيد في العالم الذي تعطي فيه الدولة والقطاع العام أجراً متساوياً للمرأة والرجل على العمل المتماثل.

■ ماذا سنفعل إذاً؟ في رأيك ما هي الشروط التي من الممكن أن تساعد في قيام النهضة؟ إن مركز دراسات الوحدة العربية قام بمشروع كبير حول المشروع الحضاري العربي، وذلك يستوقفني، هل نستطيع أن نقدم على الورق مشروعاً للأمة العربية إذا اتبعته يتم إنجاز عملية النهوض؟

عبد الله: هذا سيكون مشروعاً نهضوياً. هناك جماعة تتبناه ويعبر عن رأيها. كما أن نشر هذا الكتاب من الممكن أن يخلق ردود فعل تأييداً أو كلاماً عن أشياء بديلة، وبالتالي هذا النقاش والحوار الذي من الممكن أن يخلقه وجود هذا الكتاب سيبرز أشياء كثيرة، وسنبدأ بالكلام عن المستقبل بدلاً من الكلام عن الماضي في كل ندواتنا. ما من معهد واحد، ولا جامعة واحدة، ولا فرد من باب أولى يستطيع أن يتخيل صورة متكاملة لمشروع نهضوي، المهم أن يتناقش الناس حول هذا وأن يكون مصدراً للحوار. جوهر مفهوم النهضة عندي هو استرداد المجتمع لقدرته على التجدد لذاتي. والذي يجمد يموت وينتهي.

■ أهم ما هو مطروح وهو التعريف بـ «العولمة» (Globalization) هو مساهمتك في تعريف مفهوم ما سميته «الكوكبة»، وبخاصة سياقه المعرفي ولماذا هو «كوكبة» وليس عولمة لا يزال غير واضح بالنسبة إليّ، أنا أختلف معك في هذا، وأرجو أن تغير رأيي. أعتقد أن مفهوم العولمة هو أفضل مفهوم للدلالة على العملية الجارية حالياً. بما فيها عملية الـ «Globalization» أو عملية عولمة الاقتصاد وعولمة السياسة وعولمة الثقافة. يعني عولمة الحياة إذا صح التعبير. وأرى أن كلمة «الكوكبة» من الممكن أن تكون مفيدة أكثر في الاقتصاد وفي السياق الطبيعي، أي استخدام الطبيعة. سؤالي الأول: هل لا تزال عند رأيك أن «الكوكبة» هي الترجمة الأفضل من «العولمة»؟ وأنا شخصياً أرى من المفيد التمييز بين التعبيرين. وسؤال الثاني هو: هل لا تزال كلمة «الكوكبة» كمفهوم مفيد في التحويل الاقتصادي الجديد، وأعتقد أنك استخدمته إلى حد ما بمعنى إيجابي؟

عبد الله: أن أول صياغة لهذا التعبير صيغ بالإنكليزية بكلمة «Globalization» والتي هي مشتقة من «Globe» وتعني الكرة الأرضية. والتشابك (اللخبطة) جاء من فرنسا لأنه ليس لديهم فعل «Globaliser» فاستسهلوا وأسموها «Mondialisation». ونحن ترجمنا من الـ «Mondialisation» وليس من الـ «Globalization». وأحب أن أقول ان الاختصاصيين والاقتصاديين والأكاديميين في فرنسا أدخلوا الفعل هذا ويقولون الآن «Globalization» في المجلات التي أراها مثل *Futuré*، والذين أتعاون معهم يستعملون كلمة «Globalization». الفرق هنا ليس الفرق في الكلمة وإنما الفرق في المدلول، لأن

العالم معناه البشر.. مجموع البشر وحلم البشرية هو أن تعيش في مجتمع واحد وهو حلم قديم، وتجدد عدة مرات وترك أثراً طيباً في النفس، وهو يعطي دلالة على أن الشيء الموجود في العالم كله ليس بشعاً، لكن الأخطر من حيث المضمون هو أن الـ «Globalization» في أساسه الاقتصادي تجاوز عدد من الشركات الكبرى حدود الدولة القومية. يعني لغاية الحرب العالمية الثانية كان العالم مقسماً إلى امبراطوريات، ومن هنا جاءت كلمة الإمبريالية من كلمة «Empire». اليوم الشركات وتسمى «كوكبية» أو متعدية الجنسية، تعتبر الكرة الأرضية سوقاً لها واستغنت عن الكثير من خدمات الدولة القومية. وهي ليست محتاجة لشرطة، فلديها أجهزة أمن أكثر كفاءة. وليست محتاجة إلى القضاء، وتلجأ دائماً إلى التحكيم لأن القضاء ممكن أن يطول إلى عشر سنوات، وتصرف عليه أموال كثيرة. ويقال إن التحكيم الظالم خير من حكم قضاء عادل، لأن الزمن معناه المال. واستغنوا أيضاً عن القوات المسلحة في ما عدا الأسلحة الحديثة والإنفاق على إنتاج أسلحة جديدة لأن هذا تخرج منه النماذج (Versions) المدنية والتجارية. المثل المشهور الذي أكرره أنه في الستينيات انتشرت الـ «بوينغ ٧٠٧» (Boeing 707) في العالم بسرعة شديدة جداً، لأنها طائرة جيدة جداً وثمنها غير مرتفع. لماذا الثمن غير مرتفع؟ لأنها بنيت على أساس التكنولوجيا التي صنعت قاذفة القنابل «B2». فالتكلفة التي تحملتها الشركة المنتجة كانت محدودة جداً وبالتالي أعطتها بعداً تنافسياً أقوى. فرنسا التي امتنعت عن التجنيد الإجباري تمسكت بفكرة المواطن وليس المقاتل المرتزق هو الذي يدافع عنها. وفي سويسرا كل مواطن سويسري لديه فكرة تحويل العملية العسكرية إلى عملية وطنية. وهناك جيوش مختلفة تذهب إلى المكان الذي يدفع فيه المال أكثر، فحرس البابا كانوا كلهم سويسريين.. هؤلاء مأجورون وليس أكثر. فرنسا ألغت اليوم التجنيد الإجباري وتحولت إلى جيش محترف. يدخل الفرد إليه ليصل إلى أعلى رتبة ممكنة يستطيع أن يصل إليها وليس له أي عمل مدني.. ووقته كله مكرس لهذا. يقولون بفكرة الدفاع ولا يقولون الدفاع عن الوطن، بل يقال وزير دفاع فقط. إنه يجلب الموارد من أموال دافعي الضرائب ويصرفها على تطور التكنولوجيا. لقد درست تمويل قضايا البحث والتطوير (R & D) في الدول الصناعية السبع الكبرى، فوجدت أن نصفه من الدولة أو من المال العام، والنصف الآخر من الشركات، ويتم للشركات ولحسابها الخاص مباشرة. هذا هو المعمل الذي ينفقون عليه. الانترنت من ساهم في تصنيعه هو بيل غايتس (Bill Gates) في الأصل. إذاً لا يحتاجون إلى الجيوش لكي يحتلوا بلادنا، فاليوم لا يأتون إلينا باللباس العسكري بل يأتون بلباس مدني واسمهم مستثمرون، ونفرش لهم البساط الأحمر في حين كنا نقاتلهم لنطردهم. فلماذا يحتاجون إلى الجيش ولماذا أصلاً يصرفون عليه؟ وهم قد صفوا ووافقوا على تصفية المستعمرات القديمة التي كانت محكومة.

■ نعود إلى عسكرة العولمة. تتكلم عن عسكرة العولمة لأن سمير أمين أسماها صراحة عسكرة، لأنه في السنوات العشر الأخيرة قدمت نفسها «الكوكبة» أو «العولمة» باعتبارها عملية قدرية وهي ليست بحاجة لعسكر ولا لأي شيء حتى يتم انتشارها، وحتى تصبح الأرض قرية كونية؟

عبد الله: ليست قرية كونية، لأن الثروة في يد الـ ١٥ بالمئة من سكان العالم، والباقي يزداد فقراً. فلا أستطيع أن أقول إن هذه عالمية. أقول عولمة لكن نختلف مع

الأمريكان لأنهم يدبروها على حساب الشعوب ونحن نريد استعمالها بشكل مختلف، وهذا كلام يحتاج إلى تفكير وبحث كثير. وأقول، على الرغم من النزاعات والأعمال العسكرية التي تمت وتتم، لكن في مقارنة لأي خمسين سنة أخرى سابقة في تاريخ الرأسمالية تصبح كأنها حوادث عارضة وليست أساسية.

■ **أفهم من هذا أنك تميل إلى اعتبار الشركات المتعدية الجنسيات والقارات مستقلة استقلالاً كاملاً عن سياسات الثلاثي: اليابان، والاتحاد الأوروبي، وأمريكا، باعتبارهم المكان والموقع والمركز لكل هذه الشركات أو أكثرها، تميل إلى اعتبار الاستقلالية شبه كاملة؟**

عبد الله: لأن الوسائل الموجودة بين أيديهم تمكنهم من هذا وتمكنهم من أداء وظائف كانوا قد تركوها للحكومة من قبل ولم ينفع ذلك، فتسلمها القطاع الخاص..

■ **أتعتقد أن هذه «الكوكبة» تسير في خطها المرسوم؟**

عبد الله: منطق التطور رأسمالي وبالذات بعد اكتشاف أسلحة التدمير.. فترة وجود وازدهار الاتحاد السوفياتي كمجتمع بديل والنشاط البالغ لحركة التحرر الوطني جعلت تكلفة البقاء في المستعمرة عالية.

■ **هل تعتبر أن حركات مناهضة العولمة اليوم هي حركات طبيعية في ظل هذه العولمة؟**

عبد الله: كل فعل له رد فعل، وكل استغلال تواجهه مقاومة.

■ **وهل ستؤدي برأيك كما أدت حركات القرن التاسع عشر إلى إنتاج بديل؟**

عبد الله: أنا ما زلت اشتراكياً، وأحلم بمجتمع اشتراكي، ما هي معالمه وكيف سيكون؟ مسألة أخرى لكن تعريفه النهائي هو تصفية استغلال الإنسان للإنسان، وأن يبقوا أخوة. نعم للتنافس لكن الفروق نسبياً ليست مسيطرة.

■ **هل ما زال هذا الحل هو البديل؟**

عبد الله: على المدى الطويل لا حل إلا هذا.

■ **على الرغم من أن حركات العولمة هي ليست يسارية فقط؟ ولا ندري ما هو البديل الذي ستنتجه كونها مجموعة من الحركات من الوسط والليبرالية وحتى اليسار. فهل لا تزال تظن أن إنتاج البديل سيكون بديلاً اشتراكياً؟**

عبد الله: الأهمية بالنسبة إلي تعود إلى الطابع الشعبي والاتجاهات المختلفة والمصالح المختلفة التي اجتمعت لكي تقاوم هذا. لن يصبحوا أبداً حزباً أو تنظيماً، لكنهم بالقطع سيفرزون أشياء منظمة في مجال العمل النقابي وفي مجال العمل السياسي. لا بد، وأنت متابعة للقضية هذه، أن يحصل كل فترة تنظيم أكثر.. وتنظيم أكبر، وتظهر الفروق في كثير من القضايا. هذا الرد أنا سعيد به، لأنني مؤمن بالبشر، ومؤمن أنهم لا يقبلون الظلم، وأنهم يجب أن يتمردوا عليه، هذا هو الوضع الطبيعي. فالله خلقنا هكذا.

■ **كيف نصف حركة مناهضة العولمة، هل هي أخلاقية؟ فكرية؟ سياسية؟**

عبد الله: هناك فئات ترى المسائل المهمة عندها يُضحى بها. جماعة البيئة مثلاً.. وهؤلاء يوجهون إلى الرأسمالية أفدح نقد لأنهم ينقدونها من حيث كثرة الاستغلال وأن الإنسان يعيش في مكان أكثر مما يجلس مع الناس: في العمل، في المنزل، الثلاجة، والموسيقى.. والتلفزيون.. والزاوية المعينة. أي يعيش بين الأشياء أكثر مما يعيش فيها. وهناك كتاب يصف الحياة في نيويورك بهذا الشكل.. أهل نيويورك كل واحد بمفرده ويعيش وحده، وعندما يموت لا أحد يقترب منه. هذه هي مشاعر الرأسمالية في أمريكا.

■ **لكنها حركة أخلاقية باعتبار أنها لم تفرز حتى الآن مذهباً فكرياً؟**

عبد الله: يخرج منها عشرون مثلاً وليس واحداً فقط. وممكن أن يخرج منها اتجاه فاشيستي... قومي فاشيستي. في النهاية هي حركة تمرد. نحن في مرحلة تمرد وليس في مرحلة ثورة، والتمرد يجتمع حول أشياء محددة، ولكن مجرد وجود كل هذه الأعداد وكل هذه التنظيمات مسألة إيجابية.

■ **أنت تعلم أن حركة مناهضة العولمة ليست مدارة من أحد، بل إنها حركة تلقائية فعلية؟**

عبد الله: وأنا سعيد بهذا، والحركات المعادية للرأسمالية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر كانت بهذا التنوع. التكوين الخاص بالأممية الأولى كان يحتوي على حزبين اشتراكيين فقط والباقي كان تجمعات أخرى.

■ **نحن نطالبك ونطالب الذين لديهم معرفة تفصيلية بما تم في القرن التاسع عشر، ان تكون إحدى مساهماتكم في رفد حركة مناهضة العولمة في قيام هذه الموازنة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين.**

عبد الله: لا أريد من أحد أن يستعجل وأن يعمل لهم قيوداً اسمها «التنظيم الثوري». هذا التنوع والتعدد الذي يجمع بين الجميع ويظهر أنه ضد الوضع السائد، شيء عظيم جداً، وسيفرز أشكال تنظيم جديد.. لن نخترع لينين من جديد.

■ **ممكن، لا أحد يعرف، قد لا يكون لينين لكن أحد الأشخاص سيصبح زعيماً؟**

عبد الله: هناك تفكير جديد، وقد تتعجبين أن التجديد الماركسي هو في أمريكا وفي الوسط الأكاديمي. يعني المدرسة الأكاديمية التقليدية تتراجع، وهناك عدة اتجاهات: الـ «Neomarxism» والـ «Noepositivism» وغيرهما ليس لها علاقة بالاتحاد السوفياتي.

■ **أعتقد أن الحديث معك يحتاج إلى أكثر من يوم. ولكن سأغتنم الفرصة، إذ انه عندما تكون المقابلة مع مناضل ومفكر سياسي أود أن أطرح أسئلة في السياسة، وأرجو أن ننهي هذه المقابلة بسؤالين أساسيين: السؤال الأول، من مراجعتي لما كتبت ولتاريخك السياسي، أنت أحسن من دافع عن عبد الناصر على الرغم من أن عبد الناصر سجنك لفترة طويلة؟**

عبد الله: جئت إلى الماركسية لأنني ومذ صغري متعاطف مع الفقر. وقد وجدت في الماركسية المنطق المتكامل الذي ساعدني على فهم الفقر. فقد وهبت نفسي وبإرادتي لخدمة بلدي وخدمة شعبي والمساعدة على التقدم بقدر ما أستطيع، لهذا أنا جئت إلى

الماركسية، وعلى فكرة أنا لم أزل ماركسياً وأقولها بملء فمي. وقد أكون ماركسياً أفضل من ماركسيين آخرين غيري.

■ **أنت ماركسي حزبي؟**

عبد الله: طبعاً. فقد بقيت طوال أو معظم فترة كفاحي في مصر في قيادة الحزب ولم أكن في القاع. لكن نقطة البداية هي هل تحكمني مصلحتي الشخصية، وآلامي الشخصية، أم أن الأولوية هي ماذا حصل لمصر وماذا جرى لشعبها؟ في إحدى المرات قال لي هيكل: «أنتم تذكروننني بالمسيحيين الأوائل». فأجبته: نحن أفضل منهم. سألني لماذا؟ فقلت: إنهم كانوا يتعذبون وباعتقادهم أنهم ذاهبون إلى الجنة.. أما نحن فنعرف أنه لا توجد جنة! ولن يتحقق ما نحلم به في حياتنا.

■ **دورك د. اسماعيل في كل الحياة السياسية المصرية لا يمكن إغفاله، بقي عندي سؤال واحد فيما يتعلق بالحزب. لقد كتبت عن الديمقراطية والديمقراطية داخل الأحزاب وفيما بينها. ولديك أفكار حول هذا الموضوع: هل ترى أن حزب التجمع يمارس الديمقراطية؟**

عبد الله: بالنسبة إلى حزب التجمع أريد أن أقول ثلاث كلمات: الكلمة الأولى هي أنني صاحب كلمة «التجمع». وقد بدأنا وأنا في الوزارة، كنا نجتمع مع خالد محيي الدين، وفؤاد مرسي، وكمال رفعت ولطفي، وكان هناك التباس هل نذهب إلى الاشتراكية أم لا، وكان هناك اشتراكيون في الحكم، الآن الاتجاه كله رأسمالي ومعاد للاشتراكية، فيجب أن نفكر في إعادة تكوين حزب، وأنه ومن البداية يجب أن يكون حزباً يجمع كل من يريد من اليسار، ومرتبطاً ببرنامج وليس بعقيدة، والبرنامج أخذ منا سنتين لإعداده، وجمعنا اقتراحات من كل الناس، ونشرنا هذه الاقتراحات التي قدمت في كتاب، وبعد ذلك قمنا بصياغة البرنامج نفسه. في إحدى المرات ذهبت لأشرف على انتخابات لجنة محافظة، فوجدت كوادر المؤتمر وأعطاني أحدهم لائحة، وقال إنهم قد تفاوضوا عليها وحصل عليها إجماع، فأجبته أن الأمر لا يعنيني والنظام يقول انتخابات وانتخابات سرية، وسألتزم بهذا. وفعلاً أقمت انتخابات سرية. وبالفعل كانت النتيجة مختلفة عن اللائحة التي كانوا قد اتفقوا عليها، وكان هذا من العناصر الجيدة. ولكن النقص في الثقافة الديمقراطية شنيع. يجب أن يكون هناك انتخاب.. وتصويت.. وناس توافق أو لا توافق.

■ **مع ذلك د. اسماعيل أنت من الباحثين والمفكرين المتفائلين بمستقبل الوطن العربي. أرجو أن يتحقق تفاؤلك لأننا نعول على الأقل على هذه الأحلام التي تتضمنها كتاباتك، أشكرك جداً على هذا اللقاء الثمين. وأرجو أن تتاح لنا فرصة ثانية أيضاً في المستقبل العربي** ونستقبلك على صفحاتها.

عبد الله: أنا أيضاً سعيد جداً بالمناقشة التي دارت وبالأسئلة الحادة التي سألتها والتي تعطي طعماً للحديث. وأنا مقدر جداً أن تجروا هذا الحديث معي وفي **المستقبل العربي** وأنا معتز بهذا، ومعتز أيضاً بالجانب الإنساني لكل هذا □